آثار علماء الهند في أدب السيرة – "حياة الصحابة" نموذجا

د. محمد رياض[١]
أيوب. أي [٢]

ملخص

نبغ الهنود في اللغة العربيّة وآدابها منذ القرن الثاني من الهجرة وانبعثت منهم العباقرة في كل نوع من أنواع العلوم الدينيّة والفنون اللغوية، أصبح العرب ينظرون إلى كتبهم بعين التقدير. يكتفي الدلالة على هذا ما قال عبد العلي الحسني "أشرقت أرض الهند بنور الإسلام وأسهم أهلها العرب في الدين والعلم حتى في العربيّة والشعر والتأليف "(الحسني). ومن أشهرهم وأجدرهم بالذكر الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي المشهور بالمجدّد الألف الثاني (المتوفّى سنة ١٠٠٧ه) والملا محمود الفاروقي الجون فوري (المتوفي سنة ١٠٠١ه) والشيخ شاه وليّ الله الدهلوي (١١١٤ه-١١٧٦ه). والشيخ نواب صديق حسن القنوجي (١٨٣٢م-١٨٩٠م) وغلام علي آزاد البلكرامي الشاعر المعروف بحسان الهند (١٧٠٤م-١٧٨٥م) الشيخ عبد الجي الحسني (المتوفي سنة١٣٤١ه) والشيخ فضل الحق خيرآبادي (١٧٩٦م-١٨٦١م) والشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي (١٩١٣م -١٩٩٩م) وغيرهم الذين عالجوا وصنّفوا معظم العلوم والفنون في اللّغة العربيّة والدينيّة. كالتفسير والحديث والفقه والتاريخ والشعر والنحو والفلسفة والعلوم العقلية وغيرها من العلوم.

هذه المقالة تسلط الأضواء على مساهمات علماء الهند في فنّ السيرة وتدوينها ومكانتها في الأدب العربي، وماهي الكتب الذي ألفت في هذا الصنف؟ وخاصّة في العصر

---

[١] الأستاذ المساعد كلية م. ي. س ولانجيري، كيرلا

[٢] طالب البحث، قسم اللغة العربية كلية م. ي. س ممباد، كيرلا

الحديث، مؤكدا على مساهمة الشيخ العلاّمة محمّد يوسف الكاندهلوي في فن السيرة بإشارة خاصة الى كتابه المشهور " حياة الصحابة ".

فنّ السيرة واهتمام العلماء بها

السيرة في اللغة وهي كلمة مأخوذة من سار، يسير، سيرا أي جرى، وذهب، وارتحل. فالسيرة في الأصل السير ثم اتسعت الكلمة وتمّ الاستعمال لمعنى الطريقة والمذهب، وهو مرور الشيء الى جهة معيّنة. وله معنى أخرى " الهيئة " كما ورد في القرآن "سنعيدها الى سيرتها الأولى". فسيرة الإنسان كيفيّة سلوكه، سار السنّة أو السيرة: سلكها، اتبعها وتقيّد بها، سار سيرة حسنة: سلك سلوكا حسنا. فيتضح منها أن معاني كلمة السيرة هي: الطريقة والمذهب والسلوك وأمّا في الاصطلاح وقد يطلق على معنى التاريخ ويقال: قرأت سيرة فلان: تاريخ حياته. السيرة النبويّة: تاريخ حياة الرسول ﷺ وغزواته وغير ذلك. حسن السيرة: شريف - كتب السيرة: هي كتب دوّنت فيها السيرة النبويّة. فالسيرة عند العلماء ﷺ إذا أطلقت مطلقا لا ينصرف الا الى سيرة النّبيّ ﷺ. وهكذا صارت كلمة السيرة اصطلاحا عمليّا إسلاميّا معناها: حياة النبيّ ﷺ وبيان أحواله وجهاده في سبيل الله وحياة أصحابه معه وكل ما يتعلّق به ﷺ من الأعمال والعادات.

وبالإمعان النظر نستطيع ان نقول أنّ سيرة حياة الصحابة والظروف التي بعث النبيّ ﷺ متضمّنة في سيرة النبيّ ﷺ كما يقول صفي الرحمان المباركفوري "إنّ سيرة النبويّة – على صاحبها الصلاة والسلام، عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ الى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات الى النور، ومن عبادة العباد الى عبادة الله. فإذا لا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها الا بعد المقارنة بين خلفيّات هذه الرسالة وآثارها".[1]

وكان اهتمام علماء المسلمين بسيرة النبيّ المصطفى اهتماما بالغا ومبدوءة منذ

[1] الرحيق المختوم صفي الرحمن المباركفوري ص ٧

ظهور الإسلام، لأنّ لها مكانة مرموقة في التشريع الإسلام كأنها مصدر من مصادر التشريع بعد القرآن. والصحابة رضي الله عنهم كانوا أشدّ الناس رغبة وعناية بسيرة النبيّ ﷺ ورواية الأحاديث في عهد الخلفاء الراشدين بعد ما انتقل النبيّ الى جوار رحمة ربّه. وكان كبار الصحابة يخبرون الناس عن أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريره مع الاحترام والمحبّة. وكان أحبّ الأعمال عند الصحابة هو الحديث عن أحوال النبيّ ﷺ في مجالس بيوتهم. هكذا كان الأمر في أوائل القرون نقلوا سيرة نبيّنا عليه الصلاة والسلام شفويّا الى جيل القادم. وبعد ذلك أثمر وتطوّر هذا الفنّ كما ورد عنها في مقدّمة سيرة ابن هشام "وظلّ التأليف في سيرة النبويّة يتطوّر منذ بدء التدوين فيها في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري الى أن صارت في النصف الأوّل في القرن الثالث الهجري فنّا كاملا وعلما مستقلاّ عن سائر الفنون التاريخيّة والعلوم الإسلاميّة، ولقد بدأ وتطوّر وتمّ هذا العمل الكبير في الفترة المذكورة على يد نخبة من الرجال الذين برزوا وعرفوا بالمغازي والسير كانوا مصدرا خصبا في هذا المجال."[١]

وليس هذا الاهتمام والاعتبار من العلماء المسلين لهذا الفن في عصر الصحابة فقط، ولكن روحها ما زالت حيوية في كل عصر من العصور العابرة، وقد ظهرت كثير من الكتب مختصرا ومطولا في سيرة النبي وأصحابه من أقلام العباقرة من العلماء المسلمين قديما وحديثا. ومنها ما يعتبر مرجعا أساسيا وملجأ للمتأخرين مثل" الشمائل المحمدية " للإمام الترمذي و"سيرة ابن هشام " لعبد الملك بن هشام، و"سيرة ابن إسحق " لمحمد بن إسحق وغير ذلك من العلماء المتقدمين. وكذلك نرى أن كل من اشتهر مؤرخا، وألف في التاريخ كتبا مجدورا بالذكر فصاروا مرجعا أساسيا في تاريخ الإسلام، وآخر كلام في الاختلافات التاريخية، مساهماتهم في فن السيرة أيضا تصل الى هذه الرتبة في المؤلفات. مثل "خلاصة سير سيد البشر " لابن جرير الطبري، و" جوامع

[١] السيرة النبويّة لابن هشام، مقدمة إبراهيم الأبياري. نقلا عن إسهامات علماء شبه قارة الهنديّة في آداب السيرة والتاريخ – الدكتور محمّد ارشاد ص ٦٩,٧٠

السير " لابن حزم و" السيرة النبوية " لابن كثير و" سير أعلام النبلاء " للإمام الذهبي وغير ذلك.

مساهمات علماء الهند في فنّ السيرة

أمّا علماء الهند لم يكونوا متخلّفين من علماء العالم قطّ في تدوين السيرة والتأليف فيها، وقد اعتنوا بها كثيرا وساهموا في هذا المجال وألّفوا كثيرا من الكتب فيها قديما وحديثا. يدلّ على اعتنائهم بها واسهاماتهم فيها قول أبي الحسن علي الندوي "والّذي ألّفه الناس في سيرة النبويّة على صاحبها الصلاة والسلام من عهد الرسالة الى يومنا هذا في مختلف الأوطان الإسلاميّة والأجنبيّة في مختلف لغات العالم يعد بالألوف، واعتبر ذلك بما صنّف باللغة الأرديّة الحديثة وحدها في موضوع السيرة النبويّة مع أنّ الأرديّة لم تصر لغة تأليف الاّ منذ قرنين على الأكثر، وفي تقديري أن ما صنّف بها وحدها في سيرة النبويّة يبلغ ألفا إن لم يزد عليه."[١]

فهمنا أنّ اهتمام العلماء من الهند بسيرة النبويّة وتأليفها كان اهتماما بالغا لا يستطيع ان يحصى بأيّ مقياس من المقاييس الموجودة، بل كانت مستمرّة قرونا بعد قرون في مختلف من لغات الهندية كالأردية، والمليالم وغير ذلك. وفي اللغة العربيّة أيضا توجد كثيرا من الكتب الميمونة للعلماء الهند في هذا الفنّ. هنا نحن نذكر قبل ان نلج الى مساهمات علماء العصر الحديث بعضا من العلماء الّذين نهجوا الطريق للمتخلّفين والمتتابعين الى تأليف سيرة النبويّة مع بيان منهجها الأدبية وأسلوبها الفصيحة بحيث يستطيع لكلّ من يريد الإجادة في تدوينها وتأليفها.

ومن أقدمهم وأقومهم بالتأليف الشيخ كرامة علي بن محمّد حيات علي

[١] الرسالة المحمدية (خطبات المدارس) سيد سليمان الندوي ص ٩٦ نقلا عن إسهامات علماء شبه قارة الهنديّة في آداب السيرة والتاريخ – الدكتور محمّد ارشاد ص ٦٩,٧٠

القادري[1] وكتابه المشهور "السيرة المحمّديّة والطريقة الأحمديّة" هو كتاب ضخم يتضمّن ستمائة صفحة. وألف الشيخ هذا الكتاب ملخصا لكتاب العلامة علي بن برهان الدين الشافعي الحلبي المشهور ب "سيرة الحلبية". ولذا كان أسلوبه وتبويبه معتمدا على أسلوب سيرة الحلبية. والشيخ مولانا عبد الأول جون فوري[2] صاحب كتاب الشمائل في سيرة النبي ﷺ. والشيخ إلهي بخش الكاندهلوي[3] "كتابه عمدة اللبيب شرح شيم الحبيب ". وكان هذا الكتاب أفضل وأحسن ما كتب في شمائل النبي ﷺ وعلقه الشيخ نياز محمد أحسن بشرحه "عمدة اللبيب ". والشيخ أحمد الفاروق السرهندي المشهور بمجدّد ألف الثاني وكتابه "إثبات النبوّة ". ألف الإمام إثبات النبوة كرسائل متعددة للرد على من ينكر نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته وكان لهذه الرسائل أهمية كبري في تلك العصر. وغيرهم من العلماء الباحثين المتقنين، الذين نهجوا الطريق الأيسر الى التأليف في فن السيرة.

علماء عصر الحديث في الهند الذين ساهموا في فن السيرة

وفي العصر الحديث قد وصل العلوم والفنون في اللغة العربية الى ذروة نشأتها في الهند لأن عدّة من المعاهد والمراكز التعليم الدينيّة والأدبيّة أسّست في شتى النواحي البلد، وصارت هذه المعاهد والجامعات مأوى العلوم التي يأوي اليها الطلاب والباحثون من سائر بلاد العالم، وأنجبت هذه المعاهد العلماء والدعاة والمفكرين الذين نبغوا في اللغة العربيّة وآدابها وصنفوا فيها آلافا من الكتب القيّمة. كما عالجوا سائر العلوم الدينيّة والأدبيّة قاموا بدورهم أحسن من العلماء القدماء الّذين مشوا أمامهم حاملين

---

[1] هو الشيخ العالم المحدث كرامت العلي بن حياة على الإسرائيلي الشافعي الدهلوي، كان من كبار العلماء، ولد ونشأ بـ"دلهي"، الدكتور نسيم أحمد مجلّة نقيب الهند (يوليو- سبتمبر ٢٠٢١

[2] هو الشيخ العالم المحدث كرامت العلي بن حياة على الإسرائيلي الشافعي الدهلوي، كان من كبار العلماء، ولد ونشأ بـ"دلهي"، الدكتور نسيم أحمد مجلّة نقيب الهند (يوليو- سبتمبر ٢٠٢١)

[3] هو إلهي بخش بن شيخ الإسلام حكيم قطب الدين الكاندهلوي ولد سنة ١١٦٢ هـ

النباريس السير وضوئها. وقد فاق علماء الحديث في هذا الفن القدماء ترتيبا وتبويبا. استضاء منهم كثير من الكتب في فن السيرة يدل على تعمقهم في هذا الفن واهتمامهم به، ومن أهمها وأجدرها بالذكر ما يلي:

الرحيق المختوم: للشيخ صفي الرحمن المباركفوري[1] وقد ألف هذا الكتاب إجابة لإعلان رابطة العالم الإسلامي جائزة خمسين ألف ريال لمسابقة السيرة النبويّة، وكان الشيخ فائز بالجائزة الأولى بهذا الكتاب الأعظم[2] وشهد هذا الكتاب اقبالا شديدا من كافة الأعمار والخلفيّات العلميّة من الباحثين والمتخصصين والطلاب، ولايزال يطبع ويدرّس في المعاهد والجامعات في أنحاء العالم حتى يومنا هذا. لأن هذا الكتاب يتميز من سائر الكتب السير ببساطة تأليفه، وتبويبه وفقا للتاريخ، وكذلك بدايته بذكر أحوال العرب حينما تقع ولادة النبي ﷺ. يقول الشيخ عن تطبيق هذا التأليف وتدقيقه " انّي قبل ان أخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنبا التطويل المملّ والإيجاز المخل، ولكني كثيرا ما رأيت في المصادر اختلافا كثيرا في ترتيب الوقائع، أوفي تفصيل جزئيّاتها، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث.[3]

السيرة النبويّة: للشيخ أبي الحسن علي الحسن الندوي[4] .وقد ألّف الشيخ هذا الكتاب في أسلوب جديد جذّاب ما يقتضي اليه الحالات والعصر. وكان أسلوبه في

---

[1] هو صفي الرحمن بن عبد الله بن محمد المباركفوري الأعظمي أحد علماء الحديث في الهند ولدفي السادس يونيو١٩٤٣م في قرية من ضواحي مباركفور المعروف الآن حسين آباد. وتوفي واحد ديسمبر ٢٠٠٦م (الرحيق المختوم)

[2] مقدمة الناشر للرحيق المختوم

[3] مقدمة المؤلف، الرحيق المختوم ص ٥,٦

[4] هو عليّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ولد بقرية تكية في راي بريلي من أوتر برديش سنة ١٩٢٣م. أبوه علامة عبد الحي الحسني ونزهة الخواطر كان عالما مشهورا. وله مؤلفات كثيرة في مجال السيرة والتاريخ والتدمن والأدب والحضارة.

تأليف السيرة منفردة عمّن قبله، لأن كتابته ليست تجريدا في ذكر الوقائع والحوادث والحكايات ولكنها كانت لائحة لتحليل المسائل العصرية ووضوح أمور الدعوة والتربية كما أنه رأى أن سيرة النبوية ملجأ ومأوي لكلّ من يريد الفرار سالما من ارتداد الفكر الذي أثار فلاسفة الأوروبيّين. يقول العلّامة الدكتور يوسف القرضاوي[1] عن هذا الكتاب " فإنّه قد صدر من قلم استقي عرقه من منبع النبوّة , ورضعت شجرته من ثدي الرسالة , وفقست بيضته من سلالة الطهارة , وربّي منذ نعومة أظفاره على التعلّق بالسيرة , وحبّ صاحبها – عليه الف الف سلام – والاهتداء بهديه في الأمور كلّها , فعاش في السيرة , وعاشت فيه السيرة ".

وقد ألفت كثير من الكتب من أيدي علماء الهند الحديث في أدب السيرة غير هذين الكتابين المشهورين، وكتب هذان العالمان الكبيران أيضا كتبا آخر في فن السيرة مثل قصص الأنبياء، وفي ظلال البعثة المحمّديّة، وسيرة خاتم النبيّين وغيرها للشيخ الندوي. وروضة الأنوار في سيرة النبيّ المختار لصفي الرحمن المباركفوري. كما ألّف الفقير السيد وحيد الدين[2] كتابه المشهور" المحسن الأعظم والمحسنين ". وعماد الدين الأنصاري[3] وكتابه " زبدة السيرة النبوية." وغيرها من الكتب الممتاز.

الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي و أثره في أدب السيرة

وَمِن العلماء الهند الذين اهتموا في تدوين سيرة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وألفوا فيها تأليفا مجدورا بالذكر الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله الذي يريد الباحث ان يبين في هذه المقالة البحثية مساهمته العظيمة للغة العربية

---

[1] هو يوسف بن عبد الله القرضاوي عالم مصري يحمل جنسيّة القطرية ورئيس الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين سابقا، ولد في قرية صفط تراب مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية بمصر – ويكيبيديا.

[2] هو السيد وحيد الدين القاطن بالمنزل "الفقير" من علماء لاهور

[3] هو عماد الدين الأنصاري أمير جمعية نظارة المعارف القرآنية ومفتش المدارس الدينية ببنجاب، الهند – زبدة السيرة ص ١

وآدابها، لاسيما في فن السيرة. وقد فاق الشيخ الكاندهلوي علماء العالم الذين برزوا في هذا الفن بكتابه الوحيد الذي يعد مرجعا هاما في سيرة النبي المصطفى ﷺ، وسير أصحابه الذين عاشوا على تعاليم النبي طول أعمارهم. الكتاب الذي سماه الشيخ "حياة الصحابة" نحن نبحث أيضا عن أهمية هذا الكتاب ومكانته بين الكتب السير.

حياة الشيخ ونشأته

ولد الشيخ محمد يوسف بدلهي في يوم الأربعاء ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ هـ المصادف ليوم ٢٠ مارس ١٩١٨ م[١]. في بيت عريق بالعلم والورع، وكان والده محمد إلياس الكاندهلوي عالما كبيرا وداعيا مشهورا من شيوخ دار العلوم ديوبند مدرسة مشهورة من مدارس الهند في العالم، كما كان مؤسس الدعوة التبليغ المشهور بالترتيب الخاصة معتمدا على الترغيب والتأثير العاطفي الروحاني. وقد تأثر في محمد يوسف شخصية أبيه وسلوكه منذ صغره، لأنه عاش عيشة التزهد وسلك سلوك الناسكين. تربى محمد يوسف تحت رعاية أبيه وترعرع وتلقى مبادئ العلوم من نساء أسرته، لأن الله أكرم هذه الأسرة بنسوة مولعات في العلم والدين، نشأ الشيخ في هذه البيئة الدينية في أحضان الأمهات الصالحات.

وبعد ما تلقى العلوم الابتدائية وحفظ القرآن الكريم، التحق الشيخ الى مدرسة " مظاهر العلوم " بسهارنفور لالتقاء العلوم الحديث من كبار شيوخ الحديث مثل الشيخ منظور أحمد خان، والشيخ عبد الرحمن الكامل فوري، وأخيرا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي[٢] ابن عمه الكبير الذي أشرف على توجيه الشيخ وتربيته. وقد أظهر ولوع الشيخ ومهارته في التأليف منذ أيام دراسته، فبدأ بتأليف شرح جليل على " شرح

---

[١] أنظر ترجمة المؤلف في كتاب حياة الصحابة كتبها الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ص ٢١

[٢] الإمام العلامة محدث الشيخ محمد زكريا بن الشيخ محمد يحيى بن الشيخ إسماعيل الكاندهلوي المدني شيخ الحديث بالهند وأحد كبار المحدثين في العالم الإسلامي، ولد في كاندلة سنة ١٨٩٨ م، وتوفي في مدينة المنورة سنة ١٩٨٣م. (ويكيبيديا)

معاني الآثار للطحاوي " وسماه " أماني الأحبار"[1]. واستمر الشيخ في تأليف هذا الكتاب تحقيقا وتدقيقا الى آخر أيام عمره. [2]ولكن لم يستطع ان يتمم شرحه لأنه تولى من والده مسؤولية عظيمة، وهي إمارة عمل الدعوة والتبليغ الذي أسس والده في ترتيب مميز في الهند ثم انتشر في سائر بلاد العالم. وكان ذلك في عام ١٣٦٢ هـ. وبعد تولية المسؤولية يري في شخصيته وسلوكه تحول كبير كما يقول الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي "وانصرف من كل شيء الى الدعوة فقط، وتحولت حياته الى قلق واضطراب يعيش فيهما كل لمحة، وأصبح التبليغ شعاره ودثاره، وقد تجشم في سبيل ذلك كل مشقة وشدة، وواجه كل عنت وإرهاق بوجه باسم وقلب خاشع، فاستمر في إلقاء الخطب والرحلات الدعوية". [3]

كانت حياة الشيخ محمد يوسف مملوءة بالرحلات والبرامج معلقة بالأعمال الدعوة والتبليغ، وقد عقد نحو مائة حفلة أثناء مسؤوليته على عمل التبليغ، تتميز هذه الحفلات بكثرة الوافدين عليها والحاضرين فيها، وكان الشيخ يخطب العامة والعلماء في هذه الحفلات وقتا كثيرا، وكان كلامه يتأثر في نفوس السامعين تأثيرا بالغا. وفي عام ١٩٦٥ م كان الشيخ في رحلته الدعوة في باكستان، وقد لقي الشيخ في هذه الرحلة كثيرا من الحفلات والمجالس، وألقى فيها خطابات متعددة حتى أثرت هذه الخطابات المستطيلة والكلام المستمرة صحته سلبيا ولكن الشيخ لم يبال هذه الصعوبات والعقبات أمام أداء واجباته، فاشتد مرضه وألمه، أخيرا ألقى الشيخ خطبته الأخير في حفل "بلاهور " وبعد هذا الإلقاء اشتد مرضه حتى يصل الى الغيبوبة. وفي اليوم التالي اليوم الأول من النيسان عام ١٩٦٥م انتقل الشيخ الى جوار رحمة ربه،

---

[1] هو كتاب في أحاديث الأحكام وأدلة المسائل الفقهية الخلافية مرتب عبى الكتب والأبواب الفقهية شرحا مستفيضا لكتاب شرح معاني الآثار للإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المصري المعروف بالطحاوي المتوفي سنة ٣٢١ هجرة. لكن لم يكتمل الشرح، وطبع أربع مجلدات.

[2] أنظر ترجمة المؤلف لكتاب حياة الصحابة ص ٢٢

٣ سعيد الأعظمي الندوي. "ترجمة المؤلف." محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة.

رحمه الله رحمة واسعة.

وقد أنعم الله تعالى الشيخ بخلق يجتذب الناس اليه كما أنعمه الله بخلق جذاب، وكان متوسط القامة وضيء الوجه، مبتسم الدائم، مبرق العينين، مستأنس الخلق، " إذا رأيته أول مرة حسبته مستغرقا في الفكر الطويل، وأخذتك مهابة عظيمة منه، ولكن سرعان ما تزول الهيبة ويحل محلها الائتلاف والأنس، وكل جليس يعتقد أنه أقرب لديه من الآخرين".[1] وكان فكره وكلامه وصمته في أمور الدين، ولا يستمع الا الى شيء له منفعة في الدين لأن له علم واسع في سيرة النبي ﷺ وسير الصحابة رضوان الله عليهم، فكان يسهل على العامة إدراك خلق النبي وأصحابه برؤية الشيخ وصحبته.

وعلى الرغم من أشغاله المؤبدة والخطابات المتعددة كان الشيخ رحمه الله على شغف شديد بتأليف الكتب في موضوعات متنوعة. وله كتب ومخطوطات وان كان معدودة، ومن أهمها وأجدرها مذكورا كتابان: أحدهما " أماني الأحبار" الذي قد تم ذكره أنفا، وهو الذي يحتوي على مجلدات ضخمة، والذي لم يستكمل تأليفه في حياته. يدل تأليفه على علمه العميق في الفقه والأحاديث. وثانيهما الكتاب المشهور الذي نريد أن نبحث عنه في هذه المقالة البحثية، هو" حياة الصحابة " يشهد على تبحر الشيخ في سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم، ويعتبر هذا الكتاب ذخيرة العلم لاسيما في فن السيرة.

مكانة "حياة الصحابة " في فن السيرة

"حياة الصحابة" كتاب له مكانة مرموقة بين كتب السير، ويميز بين سائر الكتب السير بأسلوب خاص ومميزات جذابة، لأن الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي لم يرد بهذا التأليف مجرد كتابة في فن السيرة ولكن كان قصده وهمه أكبر من ذلك. يقول الدكتور بشار بن عواد"[2] ولم يكن من وكد الشيخ ان يضيف كتابا جديدا يتناول تراجم

---

[1] سعيد الأعظمي الندوي. "ترجمة المؤلف." محمد يوسف الكاندهلوي، ص: ٢٢

[2] هو بشار عواد معروف محمد بكر العبيدي البغدادي الأعظمي مؤرخ وباحث وأستاذ ولد في غزة ١٩٤٠ م

الصحابة وسيرهم حسب، فالمكتبة العربية تزخر بكتب مختصرة ومطولة في هذا الشأن، لكنه قصد الوقوف على الطريقة النبوية في بناء الإنسان فحاول التعرف اليها وتتبع ذلك في كل عنصر من عناصر هذا البناء، فجعل كتابه ينتظم أبوابا تحكي حياتهم وسلوكهم وانفعالاتهم".[١] ولا شك أنه ليس في اهتمام الشيخ ان يهدي المعلومات والمعرفات عن الحوادث والواقعات التي جرت في مهبط الوحي أيام الرسالة ولكنه يقصد ويهتم ان يجلب السالكين والمحبين الى طريقة سنة النبي ﷺ والى سنة صحابته الذين شهد لهم الرسول بقوله "النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون ".[٢]

وإذا أمعنا النظر يمكننا ان نرى الشيخ محمد يوسف يفوز فيما قصد بتأليف هذا الكتاب، لأن هذا الكتاب قد نهج لكثير من الذين يحبون أن تكون عيشتهم في منهج الصحابة ومسلكهم. ونرى هذا التميز في بداية كتابه، لأن من عادة مؤلفي السيرة ان يبدأ تأليفهم بذكر ما حدث من الوقائع أثناء مولد النبي ﷺ رواية وتاريخا، ولكن الشيخ يبدأ كتابه بذكر أهمية طاعة الله ورسوله واتباع أصحابه رضي الله عنهم، ويؤكد الشيخ على هذا الأمر بسرد الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة. وكذلك يعطي المؤلف الأولوية في هذا الكتاب لبيان فضل النبي ﷺ.

وقد ألف الشيخ هذا الكتاب كأنه دستور لكل داعية ومبلغ، ولذا يعتبر الدعاة الذين يعملون على ترتيب جماعة التبليغ الذي تم تأسيسه بأيدي والده هذا الكتاب منهجا أساسيا لعملهم، ولتحقيق هذا الهدف أجرى الشيخ كتابته كأنه يتقدم التمثيل لحياة شاملة كاملة ينفعها للسعادة في الدارين، برسم حياة الصحابة رضي الله عنهم اعتقادا وإيمانا وأخلاقا وتعبدا." ومن يمعن النظر في هذه الأبواب والأحاديث والآثار

---

١ بشار بن عواد. "مقدمة التحقيق." محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة ص: ٥١٣.

٢ رواه مسلم رقم الحديث ٢٥٣١

والأخبار والقصص والحكايات التي ساقها المصنف يدرك تمام الإدراك أن هذه النخبة هي المثل الأعلى الذي يتعين على كل مسلم مؤمن صادق الإيمان أن يتمثل في حياته، فهو يتضمن الحقول العظمى الثلاثة التي تضمنتها الآيات السبع المكونة لأم الكتاب. مرتبة حسب أهميتها وخطورتها وهي: العقائد ثم العبادات ثم السلوك "[١]

يتناول الشيخ في الكتاب موضوعات متنوعة تقرب القارئين الى محبة الله ورسوله، ويشجعهم على اتباع طرق الصحابة ويطيقهم على احتمال الشدائد في سبيل الله والدعوة الى الله. مثلا نرى عنوان الباب الثالث باب تحمل الشدائد في الله. يبين فيه كيف كان النبي والصحابة يتحملون الجوع والعطش والأذى في سبيل طاعة الله والعبادة وحده، وكيف تركوا أوطانهم الحبيبة لإعلاء كلمة الله، وكذلك نصرة الدين القويم اختاروها فوق كل شيء، يؤكد الشيخ أن الهجرة والنصرة أمران مهمان في عيش الدعاة، ولذا اختار الباب الرابع والخامس بعنوانهما، يقول الشيخ في بداية باب الخامس عما يريد ان يبين في هذا الباب، نستطيع ان نقرأها هكذا"[٢] كيف تركت الصحابة أوطانهم العزيزة مع أن فراق الوطن شديد على النفوس، بحيث أنهم لم يرجعوا الى أوطانهم الى الموت؟! وكيف كان ذلك أحب إليهم من الدنيا ومتاعها؟! وكيف قدموا الدين على الدنيا؟! فلم يبالوا بضياعها ولم يلتفتوا الى فنائها ؟!وكيف يفرون من بلاد الى بلاد احتفاظا لدينهم من الفتنة، فكأنهم كانوا قد خلقوا للآخرة، وكانوا من أبنائها. فصارت الدنيا كأنها خلقت لهم".[٣]

ومع ذلك حيث إن الكتاب كتاب سيرة، اجتمع الشيخ فيه كل حوادث ووقائع تاريخية في حياة النبي ﷺ وأصحابه الكبار، كما ذكرت الأسباب التي أدت الى اعتناق الإسلام لكبار الصحابة وكذلك دعوة النبي لأئمة العرب ولقبائلهم. وقد نجح المؤلف

---

[١] بشار بن عواد. "مقدمة التحقيق." محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة. ص: ١٥٣

٢ أنظر كتاب حياة الصحابة ج ١ ص ٤٠٦

٣ محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة.، ص٤٠٦

أن يشتمل كل ما ورد من الأخبار والآثار تحت العناوين التي اختارها للأبواب، كما نرى فصلا اسمها "دعوة النبي ﷺ لرجل لم يسمّ "تحت الباب" الدعوة للأفراد والأشخاص "،[1] يدل على تدقيقه وتحقيقه حول الموضوع. وبعد ما تم الإيراد والبيان عن الدعوة والهجرة والنصرة أورد الشيخ اهتمام الصحابة باجتماع الكلمة واتحاد الأحكام والتحرز عن الاختلاف والتنازع فيما بينهم في الدعوة الى الله ورسول وجهاد في سبيله.

وسيقر كل من يقرأ هذا الكتاب بقصد الاستفادة من حياة النبي وأصحابه، إن الكتاب قد بلغ الى المقصد المرسوم، وهوان ينبت في نمط عيش المسلمين سير الصحابة وسلوكهم وان يؤسس في قلوب المسلمين ايمانا يقرب الى إيمانهم، وأن يعيد النمط الدعوة الى عادة المسلمين التي رسم لنا رسول الله ﷺ طول حياته. ولإتمام هذه المقاصد حوى الشيخ في الكتاب حوادث شتى يصور فيه صفاء أخلاق الصحابة وشمائلهم، ابتدأه كعادته بأخلاق النبي ﷺ الذي كان خلق القرآن، وتربى النبي أصحابه على هذا الخلق العظيم الذي مدحه الله به في كتابه المجيد " وإنك لعلى خلق عظيم "[2] . وكذلك يبين الشيخ سائر الأحوال التي يواجهها الصحابة في عيشهم، وكيف كانوا يتركون اللذات الحياة الفانية للحياة الخالدة، وكيف كان الوحي والعلم الإلهي أثرت في حياتهم اليومية، وكيف كانوا يتعلمون منه أمور دينهم ودنياهم حتى يترتبون عليه أشغالهم وعباداتهم. هكذا يصور الشيخ في كتابه منهجا جليا صفيا لمن يريد السلوك الى فج كان النبي وأصحابه السابقين فيها، ومع ذلك لم يقف الشيخ بمجرد تأليفه عن هذا الطريق ولكنه أعرض ممارسة هذه الحياة طول حياته مشتغلا ومؤديا مسؤوليته في إمارة جماعة التبليغ.

خاتمة

وبهذه المقالة البحثية يريد الباحث ان يحاول محاولة صغيرة لاستخراج

---

١ أنظر فهرست الكتاب للجزء الأولى

٢ سورة القلم الآية ٤

مساهمة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في فن السيرة الذي لم ينل ما يستحق من الاعتبار بين علماء السير في العالم، وكذلك مؤلفه " حياة الصحابة "التي وصلت الى مكانة ميمونة بدقة تأليفه وتوعيته واستدلاله على سائر كتب السير قديما وحديثا. ومع ذلك حسن نية الشيخ بتأليف هذا الكتاب هو أن يجمع المسلمين في نمط الدعوة المشتملة فيها الهجرة والنصرة كما شاهدنا في حياة النبي ﷺ وأصحابه. الاستنتاج الذي يصل اليه الباحث في نهاية البحث هو أن الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي قد فاز بتأليفه ان ينقل الى القارئين صورة حيوية عن سيرة النبي وأصحابه، وكذلك فيما قصد الشيخ في تأثير الكتاب في نفوس القارئين وبالله التوفيق وعليه توكلنا.

المصادروالمراجع

١. الدكتور يوسف القرضاوي. "تقديم." أبو الحسن علي الحسن الندوي. سيرة النبوية. مكتبة الشاملة، بلا تاريخ. ٥. العربية.

٢. بشار بن عواد. "مقدمة التحقيق." محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة. بيروت: الرسالة، ١٩٩٩. ٥١٣. العربية.

٣. سعيد الأعظمي الندوي. "ترجمة المؤلف." محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة. لبنان: الرسالة للطبع والنشر، ١٩٩٩. ٢٢. العربية.

٤. صفي الرحمن المباركفوري. الرحيق المختوم. دار الفكر، بلا تاريخ. ٧. العربية.

٥. عبد العلي الحسني. "مقدمة نزهة الخواطر". نزهة الخواطر. مطبعة مجلس دائرة المعارف، ١٩٦٢. العربية.

٦. محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة. بيروت: الرسالة، ١٩٩٩. ٤٠٦. العربية.